هناك ظاهرة مشتركة بين جميع الحروب الأهلية عبر التاريخ، ألا وهي نـزوع الإنـسان فيهـا نحـو التوحش، مهما كانت عقيدته ومبدؤه، حتى يتساوى فيها المتمدن وغيره، فلو استعرضنا مشاهد من حـروب أهليّة من عصور شتى، وبين أقوام مختلفين، لوجدناها شاهدة على ذلك.

فمن أين تأتي وحشية الحروب الأهلية؟

أولاً: ينبغي التأكيد على أنه من النادر أن تكون الاختلافات العرقية أو الدينية أو المذهبيّة كافية وحـدها لإثارة الحروب الأهلية، مهما وفرت هذه الاختلافات من فوارق ثقافية في قبول الآخر، من توهينه والإقلال من قيمته وصواب اختياره، فأمثال هذه الاختلافات في التقييم تظل في نطاق التوافق الممكن أو المحتمل، بل قـد تكون باباً للدعابة وتبادل التعليقات والتخفف بين مختلف الأطراف، ولكـن الظلـم والاسـتئثار والاسـتبداد بالسلطة، والتمييز في الفرص، واستحواذ فئة على نسبة مجحفة في الابتعاد عن التعادلية الممكنة القبول، هي ما يؤدي حقيقة إلى تفجير الوضع ونشوب الحرب الأهلية، فإذا ما استأثرت طائفة دينية أو عرقية أو مزدوجة بينهما على فئة أخرى في المال والاقتصاد والنفوذ، وأتبعت ذلك بمواصلة القمع والاستبداد، وارتفعت نـسبة الفقر والبطالة وقلة الفرص في طائفة محددة دون غيرها، واستعملت الطائفة الأخرى القـوانين ومؤسـسات الدولة في إسباغ صفة القانونية على ظلمها، واللاقانونية على المعارضين لها من المطالبين بحقوقهم، وقمع حرية التعبير، ولم تستجب للمطالب المعقولة ولو في الحد الأدنى المعقول، فإنها بذلك تفـتح علـى نفـسها وشركائها أبواب الدمار.

والأمر الآخر الذي ينبغي قوله، أن وحشية الحروب الأهلية، تستمد أصل توحشها مـن كونهـا حربـاً، فالوحشية من لوازم الحرب والخصومة، وإنما يعرف الوحش بعدم استئناسه بغير نفسه وجنسه أو من هـم معه بصلة، والحروب والقتال من أسباب بقاء الكائنات الوحشية، التي تعتمد في وجودها على افتراس غيرها، وفي كل معركة يخوضها وحش ما فإنه لا يفكر في شيء إلاّ في كيفية اقتناص صيده، وهو يلجأ في ذلك إلى كل قدرة ومهارة يملكها، فهكذا هي الحروب، والبشر لما يتقاتلون يعودون إلى حالتهم الغابيّة، ونادراً ما تقف المبادئ التي اكتسبوها حاجزاً بينهم وبين أفعال الوحش، وذلك لما وجدوا بأن النصر هو أقرب لمن لا توقفه وسيلة عن تحقيقه، مهما توصف به هذه الوسيلة من لؤم ودناءة، فالنصر عند الناس حليف من لا ضمير له، وفي الحرب لا هدف يعلو على النصر، حتى ولا حرمة المبادئ .

في الحرب يعود الإنسان بشراً، يهيمن عليه عقل ما قبل النفخة المقدسة، وعقل ما قبل العقل المبـدع، الذي زود به مع النفخة الربانية، يعود تحت قيادة العقل القديم أو ما تبقى فيه منه، ليوظف الإبداع والقـدرة التي اكتسبها مع الروح القدسية في الوظائف القديمة؛ قتل الأعداء وافتراسهم، وتلبية الـشهوات والرغائـب النفسيّة من خلالهم، وهذا العقل متى ما هيمن على المنظومة واستلم الزمام ووجه الإرادة، فإنه لا يعود يتذكر المبادئ، إلاّ مبادئ الغابة والتي تطلب تحقيق النصر بأي وسيلة، وتلبيّة الشهوة في كل مشتهى، ثم الابتهـاج بالانتقام والافتراس بالرقص حول شواء الصيد، أو أسرى العدو.(يسمى هذا المخ بالمخ الوجداني وهو يـدير عملية التحكم في العواطف وهو أسرع من المخ العقلاني، وقد يسيطر في الظروف العاطفية الـشديدة علـى المخ كله ويوجهه، وإليه يعزى قدرة البعض في حالات الوجد الشديد على ممارسة أفعال شاذة وسط الطريق وأمام العامة، وهو من الناحية البيولوجية أقدم مكونات المخ).

وفي الحروب المتكافئة بين الجيوش يمنع تدافعها من الإيغال في التوحش عادة، إذ لكل فريق ما يـدفع به عن نفسه، ولكل فريق ما يخشاه من خصمه، وما يرجوه لها عنده، من حفظ الأسرى، وحسن المعاملة لو ساءته العاقبة، أما في الحروب الأهلية فتقع أكثر الضحايا بين الضعاف من الشيوخ والنـساء والولـدان أو المدنين العزل، أو الرافضين للانخراط في مهزلة الحرب، فيتم فيها قتل الأطفال وتجنيد الصبية، واغتـصاب النساء وخطف الفتيات، وتسخيرهن للخدمة والترفيه، بداعي قطع مدد المقاتلين المحتملين لو كبر الأطفـال، وشغل أرحام النساء بمن هم لا ينتمون لهن في العرق والدين، لتلويث الأصل في وجدانهن، وفي خلال ذلـك كله يشبع الوحش شهوته ويستجيب لداعي غريزته في الفتك والانتقام، ولعل هذا ما يفسر الفرح والابتهـاج بالغناء والرقص على جثث الضحايا أو الأعراض المهتوكة.. فالراقص حينها ليس الإنسان ذا الروح الرباني وإنما الوحش ابن الغابة وقد عاد بعد أن تخلى الإنسان عن عقله المبدع ومبادئه الربانية السامية في سـكرة من العَمَه العقلي(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) (الحجر:72) .

إنّ أول ما يبدأ به هذا العَمَه هو التعصب الذي يغلف العقل بغلاف حاجب عن رؤية الحـق أو العـذر للآخرين، ذلك أن المؤمن الحق رحيم القلب كيّس العقل، ينظر جهات الإعذار لدى المخالف، ويشكر الله علـى حسن البصيرة، أما المتشدد الذي لا يعرف التسامح فخطواته على الأرض ثقيلة، يتعسّف في اسـتعمال حقـه إلى حد الضرر، ويلجّ فيه إلى حدّ الإضرار، تأخذه العزة ولو بالإثم، ومن كان متعصبا فإنه يكون كما الحُمس يتعصب للدين بما يخرجه منه.

توجد دائما نقطة أو عدة نقاط تكون موضعا للاختلاف بين فرقة وأخرى، سواء على مستوى الـدين أو المذهب، وهي لا تشكل إلا جزئية من عموم الدين أو المذهب، ولكن التعصب يضخم هذه النقطة فـي العقـل فيغيبه عن كل الدين وكل المبادئ، لتكبر نقطة الاختلاف وموضع النزاع وتتضخم فتكون عنده هي الدين كله وهي المبادئ كلها، وأنّ من لم يؤمن بها فقد كفر بكل ما يستحق الاحترام، كما عبر عنه القرآن الكريم فـي تبادل نفس الوصف بين اليهود والنصارى حينما يقول كل طرف للآخر لستم على شيء (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (البقرة:113)، فهذا النفي الكلي لكون الآخر على شيء من الحق مع أنهما يتلون كتاباً واحداً وهو التوراة، فيه خروج عن أصول الاخـتلاف الـسليم، ألا وهو عدم الكفر والتنكر للمشتركات وكأنه لا يوجد مشترك بينهما، وعدم تضخيم موضع الاختلاف ليسلب كل نقاط الاشتراك ويلغيها، مع أنها أكبر سعة وأهمية من موضع التنازع، فهم ولاشك يؤمنون بوجود إلـه مـن وراء الوجود يدبر أمره، ويريد خلق علاقة بينه وبين الناس، ليعلِّمهم ويزكيهم، ويثيـب المحـسن ويعاقـب المسيء، وأن هناك وجوداً عاقلاً غائباً وراء هذا الوجود، فيه من أجناس الخلائق ما نعرف ومـالا نعـرف، وهذا لا شك أنه أوسع في تكوين هوية المرء من الإيمان بالنبي عيسى عليه السلام أو عدم الإيمان به، وأنه يجعل الحياة المشتركة ممكنة بينهما.

تأمل في فتنة خلق القرآن، هل القرآن الكريم مخلوق أم أزلي؟ لا شك أن هذه المسألة تعد ثانويـة فـي الفكر الإسلامي، ولكنها يوم الفتنة تضخمت في عقول الناس حتى كانت هي الدين كل الدين، وإن القول بأحد طرفيها يوازي الخروج من الإسلام أو الكون فيه، عند هذا الطرف أو ذاك، ونحن اليوم ننظر لهذه المـسألة بحجمها الطبيعي عند قوم لم يفتتنوا بها، لكنها لم تكن كذلك حين الفتنة، فقد غطت علـى عقـول عبـاقرة، وأضلت علماء، وانتهكت فيها حرمات، وساندتها سياسات وخلفاء، وزهقت فيها نفوس ، وشغلت الأمة بهـا عن شؤونها، فلماذا حدث كل ذلك؟ ما هو إلاّ لأن كل طرف لم يحفظ للخلاف حدوده، و ذهب به إلى مقتضيات أخرى جرجرها له عقله المتعصب و ميل هواه وحمية نفسه، من قبيل إذا قلنا أن القرآن مخلوق فإن مقتضى ذلك أن يكون الله كذا أو كذا، وكذلك العكس فيدخل العقل في دهاليز يمحو بها كل أثر للإيمان ويعود الدين كله هو تحرير هذه النقطة.

وتأمل في اختلاف المسلمين حول الولاية أهي ربانية كما يقول الإمامية أم هي وضعية من اختيار الناس كما يقول غيرهم من أهل السنة والجماعة، ثم لا يرون الدين إلاّ هـذه المسألة وبدونها تتساقـط قيمة كـل

المشتركات المتفقة بينهم، وهي كل أو جل عقائد وأخلاق ومبادئ الإسلام، من عقائد الإيمان وأركان الإسلام وأخلاق المؤمن ومبادئ الدين، وكتابه المبين ورسوله الأمين، فيأتي هذا الاختلاف بالتهويل في قيمته ليمحو معه كل قيمة وأثر لمبادئ الدين الحنيف التي يؤمنون بها جميعا، فإذا ما جمعهم جامع لا يرى كلٌ في صاحبه إلا مواضع الاختلاف المحدودة، ويتغافل عن المشتركات الواسعة، حتى بتّ تسمع هـذه الأيـام العجـب فـي اعتبارهما أنفسهما من ملتين لا من ملة واحدة، نعوذ بالله من عمى الجهل وضلال العصبية..

وخذ مثال أهل الرأي وأهل النص، فلا يلبث هذا الاختلاف أن يجر كل فريق إلى تضليل الآخر وإسـقاط قيمته العلمية والدينية، وإبطال العمل بأقواله وآرائه، ثم يتضخم ليحتل عدداً عريضاً من المؤلفات والمؤلفات المضادة، والتوهينات والتوهينات المضادة، والتكفير والتكفير المضاد، ثم اشتباكات الأتباع وانتهاك الحرمات من الدماء والأموال والأعراض.

ولا يقتصر هذا على المسلمين وحدهم بل هو سائد في أصحاب الأديان من قبلهم، بـل وفـي أصـحاب النظريات السياسية والفلسفية التي طُرحت في التغيير الاجتماعي والفكري للجماهير، وها أنت ترى أمثلتهـا اليوم تتجدد في أرقى الدول كفرنسا العلمانية، حيث تحشر العلمانية (علمانية الدولة) فـي متابعـة أصـغر خصائص المواطنين أو المهاجرين من لبس الصليب أو الحجاب أو البرطلة، ثم يتضخم الأمر شيئاً فشيئاً مع هذه الظروف العالمية المؤاتية للتضخيم، مع هذا الإعلام الجبار الذي يخترق جسد العالم كالعروق والأعصاب، فإذا قد تحولت "الحبة إلى قبة" وصار مصير الدولة والعلمانية في نظر المؤيدين رهن بإزالة الحجاب، وعلـى الطرف المقابل يكون الدين كله ملفوفاً في خرقته، التي إذا أزيلت فلا دين بعدها، أو ليست هكذا تبـدأ الفـتن العظيمة من مستصغر الشرر؟

ولكن أنظر إلى المنهج القرآني في ذلك، وخذ مثالاً عليه موقفه من أهل الكتـاب اليهـود والنـصارى والمجوس والصابئة، فلو قرأت القرآن لوجدت أنه يفرق الأمر فيهم على جهتين: جهة الجدال وجهة الحقوق القانونية والإنسانية، فمن ناحية الجدال في الفكر والعقيدة، فإنه لا يجاملهم على الحق، ولا ينكـر حقـاً هـم عليه، فمن جهة يذكر عدداً من التحريفات التي أدخلوها على الكتاب والعقيدة أو دخلت عليهم،(فَوَيْـلٌ لِّلَّـذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) (البقرة:79) ومن جهة يثبت الحق الذي هو موجود ولا يزال في كتـبهم (وَكَيْـفَ يُحَكِّمُونَـكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) (المائدة:43) ومن ناحية الأسلوب تراه يشتد أحياناً كثيرة ويرق أحياناً.

ولكن كل هذا الاختلاف وهو متعلق بقضايا هامة في الدين، بل ومن أشد قضاياه، لم يمنع القرآن من التمسك بحقهم أولاً في البقاء على دينهم، احتراماً للأصل المشترك الكبير معهم وهو الإيمان بمجمل الأصول الدينية السماوية من الاعتقاد بأن الله هو خالق الكون والإنسان، وأنه يبعث الأنبياء وينزل الكتب ويرسل الملائكة ويثيب بالجنة ويعاقب بالنار، ولم يقبل من المسلمين أو اليهود أو النصارى أو غيرهم من أهل الأديان أن يقول الواحد منهم للآخر " لستم على شيء "، فإنكاره للانحراف في شيء لم يجعله يتنكر لكل شيء، ثم سمح لهم بالعبادة على طريقتهم وقال إنه يدفع الناس بالناس لئلا تهدم هذه الصلوات والمساجد والبيع،(وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج:40) ثم أجاز الزواج منهم، والأكل من طعامهم وإطعامهم فقال: (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ)(المائدة: من الآية5) إلاّ أن المسلمين لم يتأدبوا فيما بينهم بأدب القرآن فساقطوا حرماتهم بينهم، بخلاف هو أقل من خلاف أهل الكتاب معهم، فكان أهل الكتاب في أحيانٍ كثيرة أشد أمناً بين المسلمين من أحد أطراف المسلمين أنفسهم.

قد افترى على الله كذبا كل من قال أن من الدين أن ينتهك حرمة من خالفه، سواء في حضوره أو غيابه، فكل أهل الإيمان قد أمروا بالدخول في السلم كافة فناداهم ربهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (البقرة:208) وملعون من أخرج أمة محمد (ص) من السلم إلى الحرب لأجل طمع أو هوى أو عصبية، وجاهل من أطاع عبدا كائنا من كان في خلاف هذا، وإن دماء الناس وأعراضهم وأموالهم أمانة في عنق كل أحد، وعليه أن يحفظ هذه الأمانة، خصوصا إذا كان من الرعاة كالحكام وعلماء الدين.